الفصل الرابع

قوانين المعلومات الكونية
تصحح المفاهيم العلمية

- **مصدر الشفرة الوراثية في الخلية الحية**
- الاستنتاج الأول
- الاستنتاج الثاني
- الاستنتاج الثالث
- الاستنتاج الرابع
- **عمليات الخلق التطورية**
- الاستنتاج الخامس
- الاستنتاج السادس
- الاستنتاج السابع
- **ثنائية الإنسان**
- الاستنتاج الثامن
- **دحض المذهب المادي**
- الاستنتاج التاسع
- **الاستنتاج الأكبر**
- **نحو علم كلام جديد، علم الكلام المعلوماتي**
- المعلوماتية: برهان الربوبية الأكبر
- **القارئ الكريم**

كما هو متبع مع القوانين العلمية الطبيعية، من استخراج استنتاجات ومفاهيم مهمة منها، تساعد على صياغة نظرتنا للوجود، فسنقوم في هذا الفصل **ببناء عشرة استنتاجات منطقية مهمة من القوانين العلمية للمعلومات الكونية.**

و يتكون كل استنتاج من مقدمتين، إحداهما هي قانون أو قانونين من قوانين المعلومات الكونية التي وصفناها منذ قليل والتي تُعبر عن أعلى قدر من الدقة العلمية، والمقدمة الأخرى هي أحد المفاهيم العلمية الشائعة المطلوب تقويمها لإثبات صوابها أو خطئها. ونلتزم في الخروج بالاستنتاجات من المقدمتين بأعلى درجات الدقة في الاستنباط.

وترجع أهمية هذه الاستنتاجات؛ إلى أنها **تفند العديد من الافتراضات والادعاءات المادية، التي سادت في الطرح العلمي والفلسفي المعاصر، مما يشارك في إعادة صياغة النظرة إلى الوجود، و يدفع العلم إلى مجالات ما كان ليدخلها لو ظل في إطار المذهب المادي.**

مصدر الشفرة الوراثية في الخلية الحية

تتعلق الاستنتاجات الأربعة الأولى بظاهرة الحياة واحتياج منظومتها البيولوجية الأساسية (الدنا - البروتين)[1] إلى مصدر ذكي (الإله الخالق):

(1) تقوم ظاهرة الحياة على منظومة معلوماتية رائعة، هائلة التعقيد، تعتمد على الحمضين النوويين؛ الدنا DNA والرنا RNA، اللذين يختزنان معلومات الخلية و يضاعفونها و ينقلونها إلى الريبوزومات خارج النواة حيث يتم بناء البروتينات. و يعتبر الكثير من العلماء أن سر الحياة يكمن في هذه المنظومة. وسنشرح هذه المنظومة بمزيد من التفصيل في الفصل الأول من الباب الرابع.

الاستنتاج الأول

«ترجع المعلومات الكونية في منظومة (الدنا - البروتين) في الخلية الحية إلى مصدر ذكي»

مقدمة أ: المعلومات الكونية لا يمكن أن تنشأ إلا من مصدر ذكي (القانون الرابع)

مقدمة ب: المعلومات التي يحملها نظام الدنا - البروتينات تنطبق عليها السمات الأربع العليا للمعلومات الكونية[1] (مُعطى علمي).

الاستنتاج: ترجع المعلومات الكونية في منظومة الدنا - البروتين في الخلية الحية إلى مصدر ذكي.

تواجه مؤيدي **عقيدة الداروينية** (التطور البيولوجي العشوائي) مشكلة يعجزون عن حلها، فهم يتبنون أن العمليات الحيوية داخل الخلايا وكذلك التطور من كائن لآخر تحكمها معلومات مختزنة في جزيء الدنا DNA، وهذا لا خلاف فيه بيننا وبينهم. أما الخلاف فيكمن في تحديد **مصدر هذه المعلومات.**

إن هذا الاستنتاج يفند ما يذهب إليه الدراونة حين يفسرون مصدر هذه المعلومات بفرضيات مادية[2]، تتبنى كلها أن المادة الصرِّف وحدها قادرة على إبداع المعلومات الكونية الأصلية. وقد

---

(1) نبين هذا بالتفصيل عند دراسة ظاهرة الحياة في الفصل الأول من الباب الرابع.

(2) يلخص البيولوجي والفيلسوف الألماني Bernd - Olaf ثلاث فرضيات مادية لتفسير ظهور الحياة:

(1) فرضة العشوائية The Random Hypothesis: نشأت المعلومات البيولوجية الأصلية بالصدفة، من خلال بناء الجزيئات البيولوجية الكبيرة بشكل عشوائي غير موجه. وقد ثبت أن العشوائية تعجز عن ذلك.

(2) التناول الغائي The Teleological Approach: يرجع مصدر المعلومات البيولوجية إلى قوانين طبيعية خاصة ذات توجه طبيعي لإنشاء الحياة، وتعمل هذه القوانين من أجل إنشاء الجزئيات البيولوجية الكبيرة. وهذه الفرضية أصبغت على القوانين الطبيعية غائية تتماشى مع الطرح الديني.

(3) التناول الجزيئي الداروينـي The Molecular - Darwinist Approach: نشأت المعلومات الأصلية عن طريق التنظيم الذاتي الاختياري والتطور العشوائي للجزيئات البيولوجية الكبيرة. ويفند هذه الفرضية عجز الدراونة عن تفسير مصدر التنظيم الذاتي وإثبات عشوائية التطور.

ذكرنا في الفصل السابق، في إطار مناقشة القانونين الثاني والثالث للمعلومات الكونية، عددًا من المعوقات التي تمنع بشكل كامل بزوغ المعلومات من المادة الصِّرف، ومن ثم، فإن الآليات التي يقدمها الماديون لذلك ليست إلا افتراضات تنطلق من قناعة مادية وليست من العلم ولا من واقع عالمنا بتاتًا.

الاستنتاج الثاني

«ينبغي أن يكون المصدر الأول للمعلومات الكونية في منظومة (الدنا - البروتين) بالغ الذكاء»

المقدمة أ: المعلومات الكونية لا يمكن أن تنشأ إلا من مصدر ذكي (القانون الرابع).

المقدمة ب: إن تعقيد وكثافة المعلومات في نظام الدنا - البروتين يفوق كثيرًا مجموع المعلومات الكونية التي استخدمها الإنسان في جميع ابتكاراته (مُعطى علمي).

الاستنتاج: ينبغي أن يكون المصدر الأول للمعلومات الكونية في منظومة الدنا - البروتين بالغ الذكاء.

تبعًا للقانون الرابع للمعلومات الكونية، لا يمكن أن تكون هناك معلومات كونية دون مصدر ذكي، ومن ثم ينبغي وجود مصدر ذكي في أول كل سلسلة من سلاسل المعلومات الكونية. وذلك يعني **حتمية وجود مصدر ذكي في أول السلسلة البيولوجية.** ولا يمكن أن يكون هذا المصدر هو الإنسان، ذلك أن منظومة (الدنا - البروتين) تسبق وجوده.

وقد دفع الاقتناعُ بعجز المادة عن إبداع المعلومات بعضَ الدراونة لطرح **الكائنات الفضائية Aliens** كمصدر لتلك المعلومات، وذلك دون أي دليل، بل لقد تغاضوا عن السؤال البديهي؛ ومن أين اكتسب الفضائيون معلوماتهم؟ ومن ثم فإن الطرح الفضائي لا يقدم شيئًا إلا أن **ينقل السؤال خطوة أبعد، وينقل المشكلة إلى حيث لا يمكن دراستها.** وإذا أجبنا عن هذا السؤال بأن **مصدر المعلومات البيولوجية** عند الكائن الفضائي هو كائن أعلى، وأن مصدر المعلومات عند هذا الأعلى هو كائن أعلى منه، فإننا سنستمر في هذا التسلسل إلى ما لا نهاية، وهذا غير جائز (القاعدة المنطقية: استحالة إلى **التسلسل** ما لا نهاية).

وهذا الطرح المادي - بالرغم من انهياره - تقابله مشكلة أكبر، وهي **أن هذا الكون المادي له بداية** (كما ثبت علميًّا)، ومنطقيًّا لا يمكن وجود الكائن الفضائي السوبر قبل تلك البداية. وللخروج من هذا المأزق، تبنى الماديون وجود **أكوان متعددة متتالية إلى ما لا نهاية إلى الوراء،** كل منها يؤدي إلى التالي الذي يكون له بداية، ولجأ غيرهم إلى القول بأزلية المفردة التي بدأ بها الانفجار الأعظم الذي أنشأ كوننا، وذهب آخرون إلى القول بالثقوب الدودية، وغير ذلك من تفسيرات ألف ليلة وليلة!!

إن مشكلة هؤلاء هي مع العلم الخالص غير الموجه أيديولوجيًّا، ففي مواجهة الأدلة العلمية الجازمة على أن للمادة بداية، ليس لدى هؤلاء دليل على أزلية المادة، ولا دليل على أنها حادثة نشأت من لا شيء ودون سبب، خاصة بعد الطرح المعلوماتي الذي أثبت احتياج نشأة الكون وظاهرة الحياة إلى مصدر ذكي للغاية. بل إن محاولات هؤلاء المستميتة لتفسير وجود المعلومات الكونية بوجود هذا الكائن الفضائي السوبر هي إقرار بمصدر بالغ الذكاء للمعلومات البيولوجية، و إقرار باستحالة أن تبزغ المعلومات في كوكبنا عشوائيًّا. ومن ثم فهو أكبر دليل على ما توصلنا إليه في هذا الاستنتاج.

الاستنتاج الثالث

«ينبغي أن يكون المصدر الأول للمعلومات الكونية في نظام (الدنا - البروتين) في الخلية الحية ذا قدرة خَلْقية كبيرة»

المقدمة أ: يحتاج تصميم وصناعة الآلات إلى معلومات كونية وقدرة إبداعية ذكية (القانون الخامس - أ) وذلك لتصميمها وصناعتها و إدارتها لتقوم بالأعمال المطلوبة منها.

المقدمة ب: يشتمل نظام (الدنا - البروتين) على آلات كيميائية حيوية شديدة التعقيد دقيقة للغاية، تعتمد على المعلومات الكونية لتقوم بمهامها، وتلك تفوق قدرات الإنسان الإبداعية/ الإنشائية (مُعطى علمي).

الاستنتاج: ينبغي أن يكون المصدر الأول للمعلومات الكونية لنظام (الدنا - البروتين) في الخلية الحية ذا قدرة خَلْقية كبيرة.

مثلما يمد **المصدر الذكي الأول** الخلية الحية بالمعلومات الكونية لبناء وتشفير ضفيرة الدنا DNA التي تحمل المعلومات المطلوبة لتكوين البروتينات، التي هي بمثابة الوحدات البنائية والوظيفية للخلية، فإنه أيضًا يمد الخلية بالمعلومات المطلوبة لتشييد الآلات النانوية (الريبوزومات) التي تقوم بهذه المهمة، وذلك بالإضافة إلى تشييد آلات نانوية أخرى تقوم بآلاف الوظائف داخل الخلية. إن هذا التبسيط المتواضع لما يحدث داخل الخلية **يفوق بمراحل أعقد النظم التي ابتدعها الإنسان وأكثرها كفاءة في استعمال الطاقة**[1].

الاستنتاج الرابع

«المصدر الأول للمعلومات الكونية في نظام (الدنا - البروتين) في الخلية الحية يشتمل على عنصر غير مادي»

المقدمة أ: يتطلب إبداع المعلومات الكونية عنصرًا غير مادي (القانون الرابع - ب)

المقدمة ب: نظام (الدنا - البروتين) يشتمل على معلومات كونية (مُعطى علمي)

الاستنتاج: المصدر الأول للمعلومات الكونية في نظام (الدنا - البروتين) في الخلية الحية يشتمل على عنصر غير مادي.

ويدعم هذا الاستنتاج، أن القانونين الثاني والثالث قد استبعدا قدرة العمليات المادية والعشوائية على إبداع معلومات كونية.

---

(1) يتجاوز تعقيد آليات الخلية الحية جميع مستويات النظم الهندسية التي ابتدعها الإنسان، والتي تزداد تعقيدًا من مستوى لآخر، وهذه المستويات المتتالية هي:

1 - نظام هندسي مفتوح بسيط: كآلة رفع الماء من البئر (جردل وحبل وبكرة).

2 - نظام آلي موجه من الخارج: كجهاز التكييف المزود بالثيرموستات.

3 - نظام ذو تغذية مرتجعة نشطة: كمكابح (فرامل) السيارات الحديثة التي تتغير قوتها تبعًا لدرجة انزلاق الطريق.

4 - نظام ذاتي التشخيص: ككمبيوتر السيارة الذي يحدد ما يطرأ عليها من خلل.

5 - نظام ذاتي الإصلاح: كمكابح السيارات التي تضبط ذاتها كلما تآكلت.

6 - نظام متكاثر ذاتيًّا: كأن تكون السيارة قادرة على صناعة سيارة أخرى! وهذا ما تعجز عنه التكنولوجيا البشرية.

أما نظام (الدنا - البروتين)، فهو قادر على القيام بكل ما سبق، بالإضافة إلى القدرة على التواصل مع العديد من النظم الأخرى داخل وخارج الخلية.

و إذا كنا نهدف من هذا الفصل إلى وضع أيدينا على مفاهيم منطقية نستنتجها من قوانين المعلومات الكونية، ونصحح بها بعض المفاهيم العلمية الطبيعية، فإن الاستنتاجات الأربعة السابقة تثبت أن **منظومة (الدنا - البروتين)، التي هي محور ظاهرة الحياة، تحتاج إلى مصدر غير مادي للمعلومات، بالغ الذكاء وذي قدرة خلقية كبيرة**، وهو ما يدحض المفهوم المادي السائد في الساحة العلمية من أن الحياة ظاهرة مادية نشأت عشوائيًّا.

عمليات الخلق التطورية

والآن ننتقل من الاستنتاجات حول ظاهرة الحياة واحتياج شفرتها الوراثية إلى الإله الخالق، إلى ثلاثة **استنتاجات** تدور حول تقويم «**النموذج المادي الشامل للتطور الكوني العام**» **الذي يطرحه ا لماديون لتفسير نشأة الوجود.** ونقصد به مراحل النشأة الثلاث:

- ❐ نشأة الكون، عن طريق الانفجار الكوني الأعظم: الاستنتاج الخامس
- ❐ نشأة الحياة، عن طريق التطور الكيميائي: الاستنتاج السادس
- ❐ تعدد الكائنات الحية، عن طريق التطور البيولوجي العشوائي، الاستنتاج السابع

و يتبنى الماديون أن تطور النشأة في هذه المراحل الثلاث قد حدث بشكل عشوائي، وهو ما سنفنده في الاستنتاجات الثلاثة التالية:

الاستنتاج الخامس

«الانفجار الكوني الأعظم ليس مصدرًا للمعلومات الكونية»

المقدمة أ: الكيان المادي الصِّرف لا يمكنه إنتاج معلومات كونية (القانون الثاني)

المقدمة ب: الانفجار الكوني الأعظم هو مصدر الوجود المادي (مُعطى علمي).

الاستنتاج: الانفجار الكوني الأعظم ليس مصدرًا للمعلومات الكونية.

يتبنى المذهب المادي أن الانفجار الكوني الأعظم هو المصدر المباشر للعنصر المادي

للوجـود، وذلك مقبول علميًّا ولا مشـكلة فيه. لكن هذا العنصر هو **وسـط مـادي مُحَمَّل بكم معلوماتي هائل**، ينبغي أن يكون له مصدر معلوماتي ذكي غير مادي.

الاستنتاج السادس

«التطور الكيميائي العشوائي لا يمكن أن يكون مصدرًا للحياة»

المقدمة أ: يتطلـب التطـور الكيميـائي العشـوائي أن تكـون المعلومات الكونيـة المطلوبة لنظـام (الدنا - البروتين) قد أُسـتحدثت بعمليات مادية عشـوائية صرفة (طرح الماديين).

المقدمة ب: الكيان المادي الصرف لا يمكنه إنتاج معلومات كونية (القانون الثاني)، والمعلومات الكونية لا يمكن أن تنشأ من عمليات عشوائية صرفة (القانون الثالث).

الاستنتاج: التطور الكيميائي العشوائي لا يمكن أن يكون مصدرًا للحياة.

إن الطـور الثـاني من **النموذج المادي الشـامل للتطور الكوني العام**، بعـد **الانفجار الكوني الأعظم**، هو **التطور الكيميائي**، الذي يفسر به الماديون تكوين الجزيئات الأكثر تعقيدًا، التي سـمحت بنشـأة الحياة. ويتبنى الماديون أن هذا التطور قد حدث عشـوائيًّا باستعمال الطاقات المتاحة (الشمسـية - الحراريـة - الكيميائية - الكهربائية) فتشـكلت الجزيئات من العناصر الكيميائية البسـيطة العضوية، ثم انتظمت هذه الجزيئات ذاتيًّا أو عشـوائيًّا لتكون جزيئات الحياة (البروتينات والدنا والرنا)، وبذلك بدأ أول كائن حي (الخلية البسيطة).

وحتى تتمكن الخلية الأولى من الحياة، فإنها تحتاج إلى آلية (الدنا - البروتين) المسئولة عن بناء البروتينيات اللازمة للعمليات الحيوية. إن نشـأة هذه الآلية يحتاج إلى كم هائل من المعلومات الكونية، وقدرة هائلة على الخلق، بينما يسـتحيل حدوث ذلك عشوائيًّا/ تلقائيًّا[1]. كذلك يجب الانتباه إلى أن آلية (الدنا - البروتين) هي **واحدة من النظم العديدة المطلوبة للحياة**؛ فهناك أيضًا النظام المعلوماتي الأعلى الذي يتحكم في هذه الآلية ونظام الطاقة، ونظام الصيانة، وغيرها.

(1) نطرح الأدلة على ذلك في الباب الرابع - الفصل الأول.

وبالتالي، فإن المعلومات الكونية في آلية (الدنا - البروتين) تقدم دليلًا كافيًا لاستبعاد التطور الكيميائي كتفسير لنشأة تلك الآلية التي لا غنى عنها لنشأة الحياة واستمرارها. ومن ثم فإن كونًا يتكون من كتلة وطاقة لا يمكن أن يكون مسئولًا عن الحياة، وبالتالي، فإن **كونًا يشتمل على منظومة الحياة لا يمكن أن يكون كونًا ماديًّا صرفًا.**

الاستنتاج السابع

«التطور البيولوجي العشوائي داحض»

المقدمة أ: يتطلب التطور البيولوجي العشوائي أن تضاف كميات هائلة من المعلومات الكونية الجديدة إلى نظام (الدنا - البروتين) في الكائنات الأدنى من أجل إخراج الكائنات الأحدث (مُعطى علمي)

المقدمة ب: الكيان المادي الصرف لا يمكنه إنتاج معلومات كونية (القانون الثاني)، والمعلومات الكونية لا يمكن أن تنشأ من عمليات عشوائية صرفة (القانون الثالث)

الاستنتاج: التطور البيولوجي العشوائي داحض.

إن الطور الثالث من النموذج المادي الشامل للتطور الكوني العام هو التطور **البيولوجي الذي أدى إلى التعدد الهائل في الكائنات الحية.**

وإذا كان استحداث كائنات حية أكثر تعقيدًا يتطلب إضافة معلومات كونية جديدة إلى جيناتها، **فما مصدر هذه المعلومات؟**

يفسر الماديون حدوث التطور بآلية «**الانتخاب الطبيعي من بين طفرات عشوائية**»، ويروجون أن هذه الآلية قادرة على أن تبدع المعلومات الجديدة المطلوبة.

ويدحض هذا الادعاء عدةُ مفاهيم علمية، منها أن **الانتخاب الطبيعي** هو عملية «محافظة Preservation» على المعلومات، أي أنه فقط يستبقي المفيد من بين ما هو موجود بالفعل، لكنه لا يبدع شيئًا. كذلك ليست هناك أدلة تجريبية على أن **الطفرات العشوائية** تنتج معلومات

جديـدة مفيدة، بل إنها تؤدي إلى تشـويه المعلومـات، فتنتج كائنات مشـوهة متدنية. ويطلق العلـماء على تراكم هذه الطفرات الضـارة اصطلاح «**العبء الجيني Genetic Load**». وينبغي مـع زيادة هـذا العبء في الكائنات الأحـدث أن تكون الكائنات الأسـبق في حالة أفضل مع معلومات مشـوهة أقل، أي أن هذه الطفرات ينبغي أن تأخـذ الكائنات إلى الطريق العكسي؛ إلى انحدار Devolution، وليس إلى تطور Evolution.

وبذلـك نصل من خلال القوانين العلمية للمعلومات الكونية إلى تهافت ادعاء قدرة التطور البيولوجي العشـوائي على تفسير تطور الخلية البكتيرية إلى إنسـان. ومع تراكم الأدلة العلمية عـلى صحة التطور البيولوجي يصبح علينا **الإقرار بمصدر ذكي مسـئول عـن إضافة المعلومات الجديدة المفيدة إلى الشفرة الوراثية للكائنات الأحدث**، وهو المفهوم الذي يُطلَق عليه اصطلاح **التطور الموجه/ التطوير الإلهي.**

بذلك، أثبتت **الاستنتاجات الثلاثة السابقة** المنبثقة من القوانين العلمية للمعلومات الكونية، عجز المنظور المادي والعشوائية عن تفسير النموذج الشامل للتطور الكوني العام، والمتمثل في تطور الكون عقب الانفجار الكوني الأعظم، ثم نشأة الحياة، ثم التطور البيولوجي الذي أدى إلى تعدد الكائنات الحية. إن هذه الاسـتنتاجات تثبت حاجة هذا النموذج التطوري الشـامل إلى مبـدع ذكي غير مادي، قادر على إضافة ما تحتـاج إليه كل خطوة تطورية من كم هائل من المعلومات الكونية.

ثنائية الإنسان

وصلت بنا الاسـتنتاجات السـابقة المنبثقة من قوانين المعلومات الكونية إلى احتياج تطور الكائنات الحية إلى مصدر معلوماتي مبدع غير مادي. وإذا كان التطور البيولوجي يصل بنا إلى تاج الوجود وهو الإنسان، **فهل لمفهوم المعلوماتية دور في تفسير تميز الإنسان؟**

الاستنتاج الثامن

«يملك الإنسان مُكَوِّنًا غير مادي»

المقدمة أ: يتطلب إبداع المعلومات الكونية عنصرًا غير مادي (القانون الرابع - ب)

المقدمة ب: الإنسان يبدع معلومات كونية (مُعطى علمي ورصدي عام)

الاستنتاج: يملك الإنسان مكونًا غير مادي.

ثارت في القرن التاسع عشر المجادلة الفلسفية بين الواحدية المادية والثنائية؛ هل الإنسان مادة فحسب أم به عنصر مادي وأخر غير مادي؟ وقد مالت كفة المجادلة بشدة إلى الواحدية المادية[1]، كذلك وقعت البيولوجيا تحت أسر هذا التصور الفلسفي[2].

وقد نَشَّطَت القوانين العلمية للمعلومات الكونية تلك المجادلة بعد سكونها لصالح الواحدية المادية. فإذا كانت البيولوجيا المعاصرة تتبنى أن أمخاخنا المادية قادرة على إبداع المعلومات، فقد فندنا ذلك في القانون الثاني، باعتبار أن **الكيانات المادية الصرفة لا تبدع معلومات.** وإذا كان المخ المادي هو القائم بتخزين ومعالجة ونقل المعلومات الكونية، فذلك لا يلغي الاحتياج إلى مصدر غير مادي لتلك المعلومات، وهذا ما يمكن أن نُطلق عليه العقل/ الروح Mind/Spirit/ Soul.

ولعل الاقتناع بثنائية الإنسان كانت هي الباب الواسع لكثير من المفكرين للعودة من حظيرة الإلحاد إلى دائرة الإيمان، وقد جاء على رأس هؤلاء أستاذنا الدكتور عبد الوهاب المسيري، رحمه الله. انظر إليه وهو يصف **الثنائية المميزة للإنسان**، فيقول:

أيها الإنسان... من أنت؟

أولًا: إن **إنسانية الإنسان** تعبِّر عن نفسها من خلال مظاهر عديدة، من بينها النشاط الحضارى (الاجتماع الإنساني - الحس الخُلُقي - الحس الجمالي - الحس الديني...).

---

(1) أعلن إنجلز F. Engels (1820 - 1895) أحد مؤسسي الماركسية «إن ا لعالم المادي الذي ننتمي إليه والذي نستمد منه حواسنا هو الحقيقة الوحيدة». إن مقولة إنجلز هذه ليست مدعومة بالحواس، ومن ثم فهي بمقاييسه ليست حقيقية!!

(2) في عام 1847، أصدر مجموعة من كبار علماء الفيسيولوجيا ما أسموه «البيان البيولوجي الرسمي للمادية الميكانيكية» جاء فيه: «يمكن تفسير نشاطات المادة الحية، شاملة الوعي، بشكل نهائي، في ضوء المفاهيم الفيزيوكيميائية». وقد تبنى عالم الباثولوجيا ڤيركاو R. Vircow (1821 - 1902) نفس الاتجاه المادي، باعتبار أنه لم يجد للإنسان روحًا في أثناء تشريحه للجثامين. لقد كان طرح ڤيركاو مخالفًا للمنطق إذ اعتبر أن الروح كيان مادي يمكن العثور عليه بالحواس، واعتبر أيضًا أن الروح تبقى في الجسد بعد الموت!

ثانيًا: الإنسان كائن **عاقل قادر** على استخدام عقله، وقادر على تطوير منظومات أخلاقية غير نابعة من البرنامج الطبيعي/المادي الذي يحكم جسده واحتياجاته المادية وغرائزه، وهو قادر على الالتزام بها وقادر أيضًا على خرقها، لذلك فهو الكائن الوحيد الذي لا يستجيب مباشرةً للمثيرات وإنما يستجيب لإدراكه لهذه المثيرات وما يُسقطه عليها من رموز وذكريات ونتائج.

ثالثًا: الإنسان كائن **صاحب إرادة حرة** برغم الحدود الطبيعية والتاريخية التي تَحُدُّه. وهو كائن واعٍ بذاته وبالكون، قادر على تجاوز ذاته الطبيعية/المادية وعالم الطبيعة/ المادة.

رابعًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذي **يتميَّز كل فرد فيه بخصوصيات** لا يمكن محوها أو تجاهلها. فالأفراد ليسوا نسخًا متطابقة يمكن صبها في قوالب جاهزة وإخضاعها جميعًا لنفس القوالب التفسيرية، لكنه ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب، ولا يمكن اختزاله إلى بُعد واحد من أبعاده أو إلى وظيفة واحدة من وظائفه البيولوجية أو حتى إلى كل هذه الوظائف.

خامسًا: الإنسان هو الكائن الوحيد الذي **يطرح تساؤلات عما يُسمَّى «العلل الأولى»** (من أين جئنا؟ وأين سينتهي بنا المطاف؟ وما الهدف من وجودنا؟). وهو لا يكتفي أبدًا بما هو كائن ولا يرضى بسطح الأشياء؛ فهو دائب النظر والتدبر والبحث، يغوص وراء الظواهر ليصل للمعاني الكلية الكامنة وراءها. وهذه كلها تساؤلات تجد أصلها في البنية النفسية والعقلية للكائن البشري **(النزعة الربانية)**.

سادسًا: لا تُوجَد أعضاء تشريحية أو غدد أو أحماض أمينية تشكل الأساس المادي لهذا الجانب الروحي أو الرباني في وجود الإنسان وسلوكه، لهذا فهو يشكل ثغرة كبرى في البناء الطبيعي/المادي. والإنسان ليس جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة وإنما هو جزء يتجزأ منها، **يوجد فيها ويعيش عليها ويتصل بها ولكنه ينفصل** عنها. قد يقترب منها ويشاركها بعض السمات، ولكنه لا يُردُّ في كليته إليها بأي حال، فهو دائمًا قادر على تجاوزها، وهو لهذا **مركز الكون وسيد المخلوقات**. وهو، لهذا كله، لا يمكن فهمه من خلال النماذج المُستمَدة من العلوم الطبيعية.

سابعًا: إذا كان الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تجاوز ذاته الطبيعية، فهو أيضًا **الكائن الوحيد القادر على التدني عنها**. ولذا نجد أن الخير والشر ظاهرتان إنسانيتان لا علاقة لهما بعالم الحيوان.

ثامنًا: أصبح الإنسان في منظومتي كائنًا يعيش في عالم الطبيعة/المادة ولكنه يحوي داخله عناصر غير طبيعية، أي متجاوزة للطبيعة، **يتسم بثنائية الروح والمادة**، ومن ثم فإنه تتنازعه نزعتان: نزعة للعودة إلى الطبيعة/المادية (أسميها النزعة الجنينية)، وأخرى للإحساس بالاستقلال عنها وتجاوزها (أسميها النزعة الربانية).

هذا هو تعريف أستاذنا د. عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- للإنسان، وهو ما أثبتته النظرة المعلوماتية، فهل تتفق معهما؟

دحض المذهب المادي

بعد أن فندت استنتاجاتُنا المنبثقة من القوانين العلمية للمعلومات الكونية العديدَ من المفاهيم المادية حول الكون والحياة والإنسان، فما موقف **المذهب المادي** Materialism الكامن وراء هذه المفاهيم؟

الاستنتاج التاسع

«عقيدة المذهب المادي خطأ»

الفرضية أ: يتبنى المذهب المادي أن المادة (الكتلة+الطاقة) هي الكيان الوحيد في الوجود.

الفرضية ب: المعلومات الكونية كيان غير مادي (القانون الأول).

الاستنتاج: عقيدة المذهب المادي خطأ.

بدأت نشأة العلم الحديث بعلوم الفلك، ثم امتد إلى الفيزياء والكيمياء، لذلك عندما اُكتشفت قوانين الطبيعة صاغها العلماء **في إطار الكتلة والطاقة فقط.** وقد أجابت هذه العلوم بمستوى مقبول عن العديد من التساؤلات عن طبيعة العالم المادي غير الحي. وقد ظل **عالم الأحياء** يستعصي على التفسيرات المادية، بالرغم من أن العلم قد أثبت أن أجساد الكائنات الحية تتكون من عناصر مادية.

هنا واجه العلماء الاختيار بين بديلين: إما **الإقرار بالعالم غير المادي** الذي يفسر ما استعصى تفسيره على الرؤية المادية، مع الإقرار بعجز العلم حتى ذلك الوقت عن التعامل مع هذا العالم، و إما **إنكار العالم غير المادي بالمرة** والإصرار على مادية كل شيء. وقد اختار الكثير من العلماء البديل الثاني، ثم اعتبروا أن الحياة ذاتها يمكن تفسيرها بمفاهيم الفيزياء والكيمياء وحدها.

بذلك تم اختزال الوجود كله، شاملًا الحياة، في المنظور الفيزيوكيميائي الصرف، ولم يعد

هنـاك حديث عن كيان غير مادي. وللأسـف ادعـى البعض أن هذا الموقـف (**المذهب المادي الصرف** Pure materialism) **نموذج معرفي جديد** Paradigm قادر على تفسـير الوجود كله في ضوء الأسباب والتفسيرات المادية.

نتيجـة لذلك، بدأ العاملـون في العلوم الطبيعية في اسـتنكار/ تجنب المفاهيـم غير المادية: كالـروح والإله،... كما أُعتبرت كيانات مثل الوعي والعقل والأفكار ظواهر من إفراز المادة المعقدة. وقد تطلب ذلك أن نعتبر أن **المادة قادرة على التنظيم الذاتي**، وأيضًا مسئولة عن التنظيم المعقد للحياة ونشأتها وتشعباتها. لقد كانت هذه النظرة هي أساس **مذهب العلمية** Scientism، الذي هو في الحقيقة **اعتقاد ميتافيزيقي (ديانة)**! وليسـت علمًا! فتفسير الجوانب غير المادية في الوجود في إطار المنهج العلمي المادي هو تطرف لا مبرر له.

ثم كان طوال الخمسـين سـنة الماضية، أن درس العلم **بنية ووظيفة الدنا** DNA والمعلومات التـي يحملها. وللأسـف كانت هذه الدراسـات قصيرة النظر للغايـة، إذ اهتمت فقط بالجانب المادي من جزئ الدنا المسـئول عن حمل المعلومـات، **ولم تنظر إلى المعلومات ذاتها**. إنهم بذلك يكررون خطيئة العصور السابقة في **التركيز على الشكل دون المحتوى**.

وننطلـق في اسـتدلالنا عـلى تداعي المذهب المـادي من تفنيدنا السـابق لعدد مـن المفاهيم التطورية التلقائية/ العشوائية المرتبطة بنشأة الوجود. وهي تطور الكون ابتداء من الانفجار الكـوني الأعظم، ثم التطور الكيميـائي كمصدر للحياة، وأخيرًا التطور البيولوجي العشـوائي كآليـة لتعدد الكائنات الحية. وبذلك يتأكد تداعي ديانة المذهب المادي التي أصبحت تسـود الفكر العلمي والفلسفي على السواء.

وفي مواجهة أدلة وجود العالم غير المادي، لجأ الماديون إلى أحد سلوكين: إما **وصف المجال غـير المادي بأنه أصولية دينية، وإما وصف المهتمين بهذا العالم بالجنون والعته** (وهذا ما يرجحه كبير الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكنز!). وإذا كان هذا هو أقصى ما يستطيع الماديون فعله، فإنه يثبت عجزهم، وبذلك تتكامل أدلة دحض عقيدة المذهب المادي.

الاستنتاج الأكبر

نخرج من الاستنتاجات السابقة بأن:

«المعلومات الكونية عنصر أساسي للوجود كله (الكون - الحياة - الكائنات الحية - الإنسان)، ومن ثم، فإن زوالها يعني فناء كل شيء.

تحتاج المعلومات الكونية وراء الوجود إلى مصدر فوق مادي، أزلي، أكثر إبداعًا وذكاء وقدرة من أي تصور إنساني».

انطلاقًا من الاستنتاجات التسعة السابقة، تثبت نظرية المعلومات الكونية وما يحكمها من قوانين، ما يلي:

1) المعلومات الكونية **مطلوبة لنشأة الكون وإعداد الأرض لتكون مسرحًا للحياة، ثم ظهور الحياة واستمرارها، وتنوع الكائنات الحية وصولًا إلى الإنسان الذكي.**

2) **الإنسان كائن ذو طبيعة ثنائية** (جسد مادي وعنصر غير مادي).

3) **عقيدة المذهب المادي** السائدة اليوم عقيدة متهافتة، والعمليات المادية العشوائية الصرفة تعجز عن أن تكون مصدرًا للمعلومات الكونية.

4) **إن وجود مصدر أول للمعلومات الكونية**؛ أزلي غير مادي، مطلق العلم والذكاء والقدرة، أمر حتمي. وهذا التصور يتطابق مع إدراكنا لله عَزَّوَجَلَّ، كما تطرحه الرسالات السماوية.

ولا يقف ڤيرنر جت مبدع نظرية المعلومات الكونية عند صياغة النظرية وقوانينها العلمية والاستنتاجات المنبثقة منها، لكنه يبين أيضًا **الطريق إلى دحضها**، فيقول:

«لا شك أن هذه النظرية وهذه القوانين والاستنتاجات يتوافر فيها الشرط المهم لقبول النظريات العلمية، وهو القابلية للتكذيب Falsification. والدليل التكذيبي لهذه النظرية يقوم بأن يقدم أي شخص دليلًا على إمكانية أن تنشأ المعلومات الكونية عن طريق عمليات فيزيوكيميائية صرفة غير موجهة».

نحو علم كلام جديد
علم الكلام المعلوماتي

يقوم **علم الكلام** على بحث ودراسة **مسائل العقيدة الإسلامية**، بإيراد الحجج العقلية وعرض الأدلة على إثباتها، ودحض ونقد الشبهات التي تثار حولها، ودفعها بالحجة والبرهان. ويعرف هذا العلم أيضًا **بعلم التوحيد وعلم الأصول الديني والفقه الأكبر** وغيره من الأسماء، ويقابله **علم اللاهوت** في المسيحية.

وقناعتنا أن علم الكلام مستمد من **القرآن الكريم والسنة النبوية**، فقد تكفلا بطرح العقيدة الإسلامية والأدلة عليها ودحض الشبهات حولها. وقد نما هذا العلم مع جهود **الصحابة والتابعين** في فهم العقيدة وعرضها والذب عنها. وقد تلقى هذا العلم دفعة قوية على يد **المعتزلة** الذين يمثلون المدرسة العقلية في الإسلام، خاصة بعد أن تسربت **مفاهيم الفلسفة اليونانية والهندية إلى الفكر الإسلامي**، فاستعملوا نفس منهج هذه الفلسفات في دفع حججها ضد الإسلام.

وقد قام علم الكلام عبر التاريخ الإسلامي بدور كبير للغاية في الدفاع عن العقيدة، وإن كان أسلوبه ومنهجه قد أصبح حاليًّا بعيدًا عن فهم غير المتخصصين، لما يسيطر عليه من قضايا فلسفية ومنطقية.

ومع تقدم **العلوم الطبيعية**، بدأ استعمال مفاهيمها وحقائقها في الاستدلال على قضايا الربوبية، حتى ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى إنشاء **علم كلام جديد يقوم على العلوم الطبيعية** لما لها من حجية وقوة برهان، خاصة مع ازدياد الشُّقة بين إفهام الناس وبين علم الكلام التقليدي.

ولذلك أيضًا، وبعد أن ظهر دور مفهوم المعلوماتية كبرهان قوي على الوجود الإلهي، كان طبيعيًّا أن نتبنى **تأسيس علم كلام جديد يقوم على المعلوماتية**. ومن خلال طرحنا لهذا الكتاب، نوجز هنا الخطوط العريضة التي ينبغي أن ينطلق منها علم الكلام المعلوماتي، والذي يمكن أن نطلق عليه نفس الاسم الذي أطلقناه على الكتاب.

المعلوماتية: برهان الربوبية الأكبر

وصلنا مع القوانين العلمية الستة للمعلومات الكونية، وما انبنى عليها من الاستنتاجات العشرة السابقة، إلى ضرورة **وجود مصدر مباشر للمعلومات الكونية** يقف وراء نشأة الكون وأيضًا وراء منظومة (الدنا-البروتين) وآلياتها الكيميائية الحيوية النانوية في الخلية الحية، والمسئولة عن نشأة واستمرار الحياة وتطور الكائنات الحية، ومسئول كذلك عما يميز الإنسان من ثنائية يتفوق بها على جميع الموجودات.

وقد أثبتت نظرية المعلومات الكونية أن هذا المصدر ينبغي أن يكون **بالغ العلم والذكاء والقدرة، وغير مادي (كليًّا أو جزئيًّا)**، فمن هو المصدر المباشر لهذه المعلومات؟

الإجابة: بعد أن استبعدنا المصادر المادية الصرفة التي تعجز عن إبداع المعلومات يبقى أمامنا أحد طرحين:

(أ) الطرح الأول: أن يكون **المصدر المباشر للمعلومات الكونية مصدرًا له بداية**، عليم بتلك المعلومات. وبذلك لن يكون هذا المصدر مطلق كلي العلم والذكاء والقدرة.

وهذا المصدر إما أن يكون له خالق أو خلق ذاته.. **وفكرة خلق الذات** فيها تضارب داخلي، فالكيان لا يكون قادرًا على الفعل إلا عندما يكون موجودًا، لذلك فهذا المصدر المحدود ينبغي أن يكون له خالق أكبر منه في القدرة، وهذا الأكبر يحتاج لأكبر، وهكذا، فندخل في سلسلة لا نهاية لها. وليس من حل لهذه المعضلة تبدأ به السلسلة إلا القول **بمصدر أصل أول لم يخلقه خالق**، وينبغي بداهة أن يكون أزليًّا وغير مادي، إذ أنه هو الذي خلق المادة. إن هذا هو «**دليل السبب الأول**» في علم الكلام واللاهوت، والذي تطرحه الفلسفة والديانات منذ آلاف السنين.

(ب) الطرح الثاني: أن يكون المصدر **المباشر** للمعلومات الكونية وخالق منظومة الوجود كلها **مصدرًا فوق طبيعي Supernatural**، أزلي بالغ العلم والذكاء والقدرة. أي أن هذا الطرح يسقط سلسلة الوسائط بين السبب الأول وبين كوننا المخلوق. إن التحدي أمام هذا الطرح هو: لماذا ينبغي أن يكون هذا المصدر المباشر الخالق فوق طبيعي؟

الإجابـة؛ لقد أثبت العلم أن المادة التي تَشَـكَّل منها الكون لها بداية وليسـت أزلية، لذلك ينبغي أن يكون المصدر الأول لها ليس ماديًّا، أي فوق طبيعي.

نحن الآن أمام طرحين، مصدر أول محدود (الطرح أ) ومصدر أول مطلق (الطرح ب)، وقد انتهى بنا التسلسل في الطرح (أ) إلى الطرح (ب). و إذا طبقنا **موسي أوكام**[1]، كان الأقرب هو القول بمصدر أول مباشر، بدلًا من مصادر متسلسلة تصل بنا إلى نفس المصدر.

والآن دعنـا نتأمل إن كان هـذا المصدر الأول الأزلي بالغ العلم والذكاء والقدرة والخالقية، فوق الطبيعي، ينطبق على الإله = الله عَزَّوَجَلَّ:

مهـما كان المصـدر الذي خلق المادة، فينبغي أن يكون مسـئولًا عن كتابـة وفاعلية قوانين الطبيعـة كلها، وأن يكون على علم وذكاء وقدرة كافيـين لخلق الوجود كله من العدم المطلق، وهـي صفات تفـوق قدراتنا على التصور بشـكل هائل، ومن ثم ليسـت مبالغـة أن نصفه بأنه «**مطلق**» العلم والذكاء والقدرة.

لقـد وصلنا الآن إلى **مصـدر أول خالق، غير مادي، فوق طبيعي، أزلي، مطلق العلم والذكاء والقدرة والخالقية**، إن لم يكن هذا هو الإله، فكيف يكون الإله؟!

والآن، **فلنلخص التسلسل المنطقي لهذا البرهان المعلوماتي:**

1- بدأنـا بالاسـتنتاجات 1، 2، 3، التـي أوصلتنا إلـى أن المصدر الأول وراء نظـام (الدنا - البروتين) ينبغي أن يكون بالغ الذكاء وذا قدرة خلقية كبيرة.

2- في الاسـتنتاج الخامس، أثبتنا أن المـادة والكون الحادثين لا يمكن أن يكونـا خُلِقا ذاتيًّا، ولكن خلقهما كيان ما.

3- من الاسـتنتاج الرابع، ينبغي أن يشـتمل هذا الكيان الخالق على مكون غير مادي. إذ لا يمكن أن يكون المصدر الأول طبيعيًّا/ ماديًّا؛ لأن كل الكيانات المادية مخلوقة.

4- درسـنا إن كان المصدر الأول أزليًّا فوق طبيعي أم مؤقت مخلوق، وقد قادنا ذلك، بشـكل

(1) موسي أوكام Ocom Razor: مبدأ يقوم على أنه إذا تعددت الأسـباب المحتملة، فالسـبب الذي يمكن شرحه بشـكل أبسط هو الأرجح. منسوب إلى المنطقي الإنجليزي ويليام أوكام (1288 - 1347).

مباشر أو من خلال تسلسل ورائي إلى مصدر أول غير مخلوق، ومن ثم أزلي فوق طبيعي.

5- بتطبيق موسي أوكام، تَرَجَّحَ أن يكون المصدر المباشر للوجود هو المصدر الأول الأزلي فوق الطبيعي.

6- عندما تأملنا ما ينبغي أن يكون عليه المصدر الأول من علم وذكاء وقدرة وخالقية وصلنا إلى أنها تفوق قدرة الإنسان على القياس أو حتى على التصور.

7- الخلاصة

إن المصدر الأول للمعلومات الكونية اللازمة لخلق متسلسلة الكون - الحياة - تعدد الكائنات الحية - الإنسان، هو كيان فوق مادي، أزلي، مطلق العلم والذكاء والقدرة والخالقية.

وهذا ما ينطبق على الله عَزَّوَجَلَّ، كما نعرفه في الرسالات السماوية المختلفة.

القارئ الكريم

كما هو متبع مع القوانين العلمية الطبيعية، من استخراج استنتاجات ومفاهيم مهمة منها، تساعد في صياغة نظرتنا للوجود، قمنا في هذا الفصل **ببناء عشرة استنتاجات منطقية مهمة من القوانين العلمية للمعلومات الكونية.**

وهذه الاستنتاجات **تفند العديد من الافتراضات والادعاءات المادية، التي سادت في الطرح العلمي والفلسفي المعاصر، مما يشارك في إعادة صياغة النظرة إلى الوجود، ويدفع العلم إلى مجالات ما كان ليدخلها لو ظل في إطار المذهب المادي.**

وانطلاقًا من هذه الاستنتاجات، تثبت نظرية المعلومات الكونية وما يحكمها من قوانين، ما يلي:

1) المعلومات الكونية **مطلوبة لنشأة الكون وإعداد الأرض لتكون مسرحًا للحياة، ثم ظهور الحياة واستمرارها، ثم تنوع الكائنات الحية وصولًا إلى الإنسان الذكي.**

2) **الإنسان كائن ذو طبيعة ثنائية** (جسد مادي وعنصر غير مادي).

3) **عقيدة المذهب المادي** السائدة اليوم عقيدة متهافتة، والعمليات المادية العشوائية الصرفة تعجز عن أن تكون مصدرًا للمعلومات الكونية.

4) **إن وجود مصدر أول للمعلومات الكونية**؛ أزلي، فوق طبيعي، مطلق العلم والذكاء والقدرة، أمر حتمي. وهذا التصور يتطابق مع إدراكنا لله عَزَّوَجَلَّ، كما تطرحه الرسالات السماوية.

ولا يقف ڤيرنر جت مبدع نظرية المعلومات الكونية عند صياغة النظرية وقوانينها العلمية والاستنتاجات، المنبثقة منها، لكنه يبين أيضًا **الطريق إلى دحضها**، فيقول:

«لا شك أن هذه النظرية وهذه القوانين والاستنتاجات يتوافر فيها الشرط المهم لقبول النظريات العلمية، وهو **القابلية للتكذيب Falsification. والدليل التكذيبي لهذه النظرية يقوم بأن يقدم أي شخص دليلًا على إمكانية أن تنشأ المعلومات الكونية عن طريق عمليات فيزيوكيميائية صرفة غير موجهة».**

ومع تقدم **العلوم الطبيعية**، بدأ استعمال مفاهيمها وحقائقها في الاستدلال على قضايا الربوبية، حتى ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى إنشاء **علم كلام جديد يقوم على العلوم الطبيعية**، لما لها من حجية وقوة برهان، خاصة مع ازدياد الشقة بين إفهام الناس وبين علم الكلام التقليدي.

ولذلك أيضًا، وبعد أن ظهر دور مفهوم المعلوماتية كبرهان قوى على الوجود الإلهي، كان طبيعيًّا أن نتبنى **تأسس علم كلام جديد يقوم على المعلوماتية**، ويسعى إلى إثبات:

> **أن المصدر الأول للمعلومات الكونية اللازمة لخلق متسلسلة الكون - الحياة - تعدد الكائنات الحية - الإنسان، هو كيان فوق مادي، أزلي، مطلق العلم والذكاء والقدرة والخالقية.**